

فِي أَجْوَاءِ مَوْلِدِ الرَّسُولِ (ص)

وَحْفِيدِهِ الصَّادِقِ (ع)

يستعيد المسلمون في شهر ربيع الأول من كل عام ذكرى مولد منقذ الإنسانية، سيد الخلق، الرسول الأعظم محمد (ص). وهم يستعيدون بولادته (ص) ولادة الإسلام وقيمه التي جسدها في شخصه العظيم، وولادة مكارم الأخلاق التي بُعث لإكمالها بسلوكة كما بتعاليمه (ص).

وإذا كان الاحتفال بولادة أي فردٍ من الناس، يمثّل تعبيراً من قبيل المُحتفل عن محبّته لذلك الشخص، فإنّ احتفال المسلمين بولادة رسول الله (ص) لا يكشف بصورة كاملة عن ولائهم ومحبّتهم له، إلّا إذا أُضيف إليه التزامهم بتطبيق رسالته والتمسّك بهديه، والاقتداء به في أقواله وأفعاله (ص).

وتقترن ولادة الرسول (ص) وفق بعض الروايات، بولادة حفيده الإمام جعفر بن محمد الصادق (ع)، لا في الشهر ذاته فحسب، بل في اليوم ذاته أيضاً. وفي ذلك تذكير رمزي بحقيقة امتداده واستمراره (ص) فكراً ونهجاً من خلال العزّة الطاهرة، أهل بيته صلوات الله وسلامه عليه وعليهم. هذا الامتداد والاستمرار الذي أكّدت عليه العديد من الأحاديث النبوية الواردة لدى المسلمين كافة، وفي طليعة هذه الأحاديث حديث الثقلين الشهير:

"...إني مَخْلَفٌ فيكم الثقلين، كتاب الله وعترتي أهل بيتي، ما إن تمسّكتم بهما لن تضلّوا بعدي أبداً..."

ونستفيد من هذا الحديث: وجود تلازم بين القرآن وأهل بيت النبوة، بحيث لا يمكن للأمة إن أرادت حفظ نفسها من خطر الانحراف والضلال - إلّا أن تتمسّك بهما معاً. وإذا كان التمسّك بالقرآن الكريم يعني تطبيق مضامين آياته، فهل يعني التمسّك بأهل البيت (ع) غير محبتهم والتمسّك بأقوالهم التي هي أقوال جدهم (ص) نفسها، والتأسي بسيرتهم وأفعالهم التي هي تجسيد حي لنهج الإسلام. فائمة أهل البيت (ع) هم أعرف الناس في زمانهم بالإسلام وأحكامه الواقعية، بعد أن اختلطت الأحاديث النبوية الصحيحة بالروايات الموضوعية المدسوسة، وكذلك هم الأقدر على تبيان هذه الأحكام بخصوص الوقائع المستجدة.

يقول الإمام جعفر الصادق (ع)، أحد هؤلاء الأئمة الهداة من أهل البيت (ع):

"إنّ عندنا ما لا نحتاج معه إلى الناس، وإنّ الناس ليحتاجون إلينا. وإنّ عندنا كتاباً بإملاء رسول الله (ص) وخط علي (ع)، صحيفة فيها كل حلالٍ وحرامٍ...".

ولقد دلّت الوقائع التاريخية على أنّ أئمة أهل البيت (ع) لم يتلمذوا على أحدٍ من سائر الناس، بل إنّ غيرهم قد تتلمذ على أيديهم (ع). وكان للإمام جعفر الصادق (ع) في مجال التدريس والتثقيف دور مميّز سمحت به ظروف عصره، حيث شهد آخر أيام الحكم الأموي، وبداية الحكم العباسي.. وهي فترة اتسمت بضعف قبضة السلطة الحاكمة، الأمر الذي مكّن الإمام (ع) من ممارسة مهماته العلمية والتوجيهية بحرية كبيرة. ولذلك كثر طلابه حتى تجاوز عدد مَنْ عُرِف منهم أربعة آلاف، وهذا رقم غير عادي بلحاظ ذلك العصر. وقد كان من جملة طلابه المعروفين، إمام المذهب الحنفي أبو حنيفة النعمان بن ثابت، الذي نُقل عنه قوله: "لولا السنن لَهلك النعمان".. وذلك في إشارة منه إلى مدة دراسته لدى الإمام الصادق (ع). كما يحدّثنا التاريخ عن تتلمذ إمام مذهب آخر على يديه، لبعض الوقت، هو مالك بن أنس، حيث نُقل عنه قوله:

"اختلفت إليه زماناً فما كنت أراه إلا على إحدى ثلاث خصال: إما مصلاً، وإما صائماً، وإما يقرأ القرآن".

وإذا أخذنا في الحساب ما يؤكّده ابن أبي الحديد المعتزلي وغيره، من كون الشافعي وابن حنبل، إمامي المذاهب المعروفين، ينتهيان في سلسلة شيوخهما إلى أبي حنيفة.. جاز لنا القول بأنّ أئمة المذاهب الأربعة المشهورة هم جميعاً، بصورة مباشرة أو غير مباشرة، تلامذة حفيد رسول الله (ص) ووارث علومه، الإمام جعفر بن محمد الصادق (ع). وفي ذلك تأكيد واضح على المرجعية الدينية التي مثلها أئمة أهل البيت (ع) في حياة المسلمين، وعلى دورهم التاريخي الذي اضطلعوا به في إرشاد الأمة إلى تعاليم جدهم (ص)، وعلى سعيهم من أجل صيانتها من خطر الانحراف والضلال.

والمسلمون كلهم، على اختلاف مذاهبهم، ينتظرون تحقيق ما أخبرهم به نبيهم (ص) من خروج حفيده "المهدي" من أهل البيت (ع)، في مستقبل الأيام، ليُكمل دور أجداده فيما يخصّ توجيه الأمة، وتوحيد صفوفها تحت راية الحق والعدل.

رئيس التحرير